المحاضرة الرابعة:الصوت والبنية الموسيقية(1)

*تمهيد:

إن أصول الشعر العربي مبنية على الإيقاع والنغم، ومولد هذه الموسيقى أصوات اللغة، فالأصوات بخصائصها الفيزيولوجية والفيزيائية، ووحداتها المقطعية والنبرية، هي المادة الخام التي يبني عليها الشاعر أنغامه وتعابيره الفنية، لتحمل شعوره وأفكاره، فالأصوات مصنع الألحان في شعرنا العربي.

إن الشعر والموسيقى جنسهما واحد هو ذلك التأليف والتناغم بين الأصوات والكلمات، وتوقيعها النغمي، ومن هنا نلمح تلك العلاقة التواشجية بين الأصوات وموسيقى القصيدة، "لتصبح بذلك مهمة الصوت، بما هو مجموعة أحرف، هي التعبير موسيقيا عن المعنى، ورفده كنسق متصل بالحدث، ينهض بإبداعية القصيدة من جهة، وكموسع حتمي للتأثير في المتلقي من جهة أخرى."

استنادا إلى ما سبق، تصبح الدراسة الصوتية مدخلا ضروريا يلج منه الدارس عالم الشعر العربي، ويتغلغل إلى أعماق النص، ويكشف مكنوناته الدلالية والإيحائية. ومنه أصبح لزاما عليه الوقوف عند معالم الدرس الصوتي، بكل موضوعاته، وهي ما سنحاول بسطه فيما يلي:

*تعريف الصوت:

الصوت العام:

الصوت في علم الفيزياء، ظاهرة طبيعية تنشأ عن اهتزاز الأجسام، وندركه عن طريق حاسة السمع، ويتخذ الاهتزاز شكل أمواج متتابعة تتحول إلى ما يسمى بالموجات السمعية، وهذا ما وضحه إبراهيم أنيس في قوله:"الصوت ظاهرة طبيعية ندرك أثرها قبل أن ندرك كنهها، فقد أثبت علماء الصوت بتجارب لا يتطرق إليها الشك أن كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز على أن تلك الهزات قد لا تدرك بالعين في بعض الحالات".

وقد أثبت العلماء بتجارب علمية أن حدوث الصوت أو العملية التصويتية تتطلب وجود ثلاثة عناصر أساسية هي:

1-وجود جسم في حالة اهتزاز (تذبذب).

2-وجود وسط ناقل (الهواء) لتلك الذبذبات أو الاهتزازات الصادرة عن الجسم المهتز.

3-وجود جسم يستقبل هذه الذبذبات (حاسة السمع).

الصوت اللغوي:

أما الصوت اللغوي فهو مدرك سمعي تنتجه أعضاء النطق الإنسانية إراديا في صورة ذبذبات، نتيجة لاوضاع وحركات معينة لهذه الأعضاء، أو هو بصيغة أخرى،" ككل الأصوات ينشأ من ذبذبات مصدرها في الغالب الحنجرة لدى الإنسان، فعند اندفاع النفَس من الرئتين يمر بالحنجرة فيحدث تلك

الاهتزازات التي بعد صدورها من الفم والأنف تنتقل خلال الهواء الخارجي على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن". **معايير تصنيف الأصوات:**

قسم علماء اللغة العربية الأصوات تقسيمات مختلفة، بنيت على أسس متنوعة، وأهم هذه التقسيمات، تقسيمها إلى فئة الأصوات الصامتة، والأصوات الصائتة.

الأصوات الصامتة:(الصوامت)

وتسمى بالحروف عند علماء العربية مثل (الباء والتاء والثاء والجيم...)، ولها مصطلحات أخرى منها: السواكن، الصحاح، الحبيسة، وإنما سميت بذلك لأنها أقل وضوحا في السمع، وذلك أنه عند النطق بها يعترض لها في الفم والحلق والشفتين عارض (التقاء عضوي النطق مع بعضهما البعض)، فيضيق المجرى الهوائي ويقلل من علوها الصوتي.

والصوامت العربية هي :ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ي(الصحيحة) ء.

الأصوات الصائتة:(الصوائت)

وهي الحركات من فتحة وضمة وكسرة، وتضاف إليها حروف المد الثلاثة الألف والواو والياء الطويلة، وتسمى أيضا بالعلل وأصوات اللين، والمصوتات، والصفة التي تجمع بين قصيرها وطويلها هي الوضوح في السمع، ذلك أن الهواء حين يندفع من الرئتين مارا بالحنجرة يتخذ مجراه في الحلق والفم، بحيث لا يجد ما يعترض سبيله من عوائق/ ومن ثم يضيق مجرى الصوت قليلا ذلك نوعا من علو الصوت.

ويبنى هذا التصنيف على معيارين هما:

-أ-وضع الوترين الصوتيين أثناء النطق بالأصوات الصائتة والصامتة، فعند النطق بالصوائت تبين حدوث تذبذب في الوترين الصوتيين، وهو أن الهواء يهزهما فيتولد رنين مسموع عند صدورهما، مما يولد صفة الجهر.

-ب-طريقة مرور الهواء من الحلق والفم أو الأنف: عند النطق بالحركات يمر الهواء حرا كليقا من الحلق إلى الفم، لا يعترضه عارض، ومنه يكون تعريف الصائت والصامت على هذا النحو:

الصائت:هو الصوت المجهور الذي يحدث في تكوينه أن يندفع الهواء في مجرى مستمر، خلال الحلق والفم، دون أن يكون ثمة عائق أو تضييق للمجرى الهوائي.

الصامت:هو الصوت المجهور أو المهموس الذي يحدث حين نطقه اعتراض لمجرى الهواء، سواء أكان هذا الاعتراض كليا كما في نطق الباء والدال والكاف، وغيرها، أم كان جزئيا يسمح بمرور الهواء بصورة ينتج عنها احتكاك مسموع كما في نطق الثاء والفاء والغين، وغيرها.

أشباه الصوائت:

هذا المصطلح يطلق على الياء والواو عندمايكونان صحيحين وساكنين(معربين من الحركات)، في الياء في مثل: بيْت، بيْع، زيْت، أما بالنسبة للواو ففي نحو: يوْم، نوْم، قوْم، وغيرها، وكذلك الأمر حين تقع الياء متطرفة (لاما) للكلمات، مثل: ظبي رمي، وكذلك الواو في نحو: دلْوْ.

فالواو والياء في هذه الكلمات وأشباهها تعدان من أشباه الصوائت.

***مخارج الأصوات:**

تعريف المخرج:هو المخرج أو موضع النطق أو الموقع(point d articulation)، أي مكان حدوث الصوت، ويدعى أحيانا بنقطة النطق، حيث يحدث الاعتراض حبسا أو تضييقا لتيار الهواء المنبعث من الرئتين كما في ا أصوات الصامتة التي تحدد أساسا عن طريق المخرج ودرجات الانفتاح.

مخارج الحروف عند الخليل:

إن الخليل بذائقته الصوتية ، هو أول من قلب الحروف العربية، فوضعها في منازل معينة ضمن مخارج صوتية معينة بحسب مدارج مقدرة من أقصى الحلق حتى إطباق الشفة في الميم ، واتضح أنه صنف هذه المخارج إلى تسعة أصناف ندرجها كالآتي:

-1-العين والحاء والهاء والغين والخاء حلقية، لأن مبدأها من الحلق.

-2-والقاف والكاف لهويان، لأن مبدأهما من اللهاة.

-3-والجيم والشين والضاد شِجْرية، لأن مبدأها من شِجْر الفم.

-4-والصاد والسين والزاي أسلية، لأن مبدأها من أسلة اللسان.

-5-والطاء والتاء والدال نِطْعية، لأن مبدأها من نِطْعِ الفم (الغار/الطبق).

-6-والظاء والذال والثاء لثوية، لأن مبدأها من اللثلة.

-7-والراء واللام والنون ذلقية، لأن مبدأها من ذلق اللسان.

-8-والفاء والباء والميم شفوية، لأن مبدأها من الشفة.

-9-والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد، لأنها لا يتعلق بها شيء.

***الصفة:**

إن تحديد مخرج الصوت لا يكفي وحده لتوضيح خصائصه التي تميزه عن غيره من الأصوات، ذلك لاشتراك أكثر من صوت في المخرج الواحد، وهناك عناصر أخرى في العملية النطقية تسهم في منح الصوت اللغوي خصائصه المميزة له، ويشكل المخرج أحد تلك العناصر، وهو بمثابة المكان الذي تحدث فيه تلم العملية المركبة من عدد من الأنشطة لأعضاء النطق.

وقد اصطلح علماء العربية على تسمية ما يصاحب تكوّن الصوت في مخرجه من أنشطة أعضاء النطق المختلفة بالصفات، ويعرفون الصفة بأنها كيفية عارضة للحرف عند حدوثه في المخرج، وتتميز بذلك الحروف المتحدة في المخرج عن بعضها البعض.

صفات الأصوات:

1-الجهر والهمس:الصفات الأساسية

عرف سيبويه الصوت المجهور بقوله:"حرف أُشبِع الاعتماد في موضعه، ومُنع النفَس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت"، ومنه فإن علامة الصوت المجهور منع النفَس (الهواء) من الجريان لوجود مانع هو انحباس الهواء عن طريق التقاء عضوي النطق، وانطلاقه بعد إزالة ذلك المانع.

ثم ذكر أن الأصوات المجهورة في اللغة العربية 19 صوتا، وهي:(ء ا ع غ ق ج ي ض ل ن ر ط د ز ظ ذ ب م و).

أما الصوت المهموس فعرفه:"حرف أُضعِف الاعتماد في موضعه حتى جرى النّفَس معه"، وبالتالي تكون علامة المهموس جري النفس وانطلاقه بيسر وراحة، لضعف الارتكاز والالتقاء بين عضوي النطق.

فضابط الجهر والهمس عند سيبويه، هو جريان النفس مع الحرف أو توقفه، فإذا جرى النفس مع النطق بالحرف كان مهموسا، وإذا منع النفس من الجريان حتى ينتهي الارتكاز كان مجهورا.

2-الشدة والرخاوة وما بينهما:الصفات الثانوية

الشدة:عرف سيبويه الصوت الشديد بقوله:"ومن الحروف الشديد، وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه...وذلك أنك لو قلت الحج ثم مددت صوتك لم يجر ذلك"، فعلامة الشديد منع الصوت من الجريان، بعد أن ينغلق المجرى الهوائي انغلاقا تاما، فيتوقف الصوت عند نقطة الانغلاق مدة معينة ثم يزول الانغلاق بسرعة وينطلق الصوت الشديد.

والأصوات الشديدة عند سيبويه هي ثمان أصوات مجموعة في قولهم:"أجدك قطبت"، ويسميها المحدثون بالانفجارية أو بالوقفيات.

الرخاوة: بالنسبة للرخوة يعرفها بقوله:"ومنها الرخوة وهي ...وذلك إذا قلت الطسّ وانقض وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت، وأما العين فبين الرخوة والشديدة"، فعلامة الرخو جريُ الصوت، لعدم انغلاق المجرى انغلاقا تاما، بل ارتخاء الأعضاء واقترابها من بعضها فقط فيضيق المجرى الهوائي، ويجري الصوت ويمتد مع النفس

والأصوات الرخوة عند سيبويه هي :(ه ح خ غ ش ص ض ز س ظ ث ذ ف)

أما ما بين الشديدة والرِّخوة فتتمثل في صوت العين، ويسميها المحدثون بالمتوسطة أو البينية.

والصوت البيني أو المتوسط فهو ذلك الصوت الذي يتخذ موقفا وسطا بين الشدة والرخاوة، فمن الناحية الفيزيولوجية يطهر أنه شديد، إذ ينغلق معه المجرى انغلاقا تاما، ولكن في الوقت نفسه يتسرب الصوت متخذا طريقه في المجرى الذي كان فيه، أو عبر تجويف آخر كالتجويف الأنفي مع النون والميم.